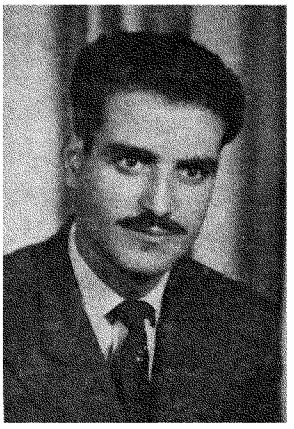

علي لقمان

كانت الآداب جامعتي المتنقلة !

ربما كان من العسير التقاط الذكريات الغالية من شتاتها الموغل في مسارب النفس واغوارها السحيقة المتردمة ، وبخاصة حين ترتبط هذه الذكريات بأنضر سنوات العمر واشدها قلقا ورهافة وفجيعة . فقد عاش جيلنا خلال هذه السنين ثلاث حروب موجعة فاضحة ، وعانى سلسلة من التحديات والهزائم والاحباطات ... وما زال يعاني من عقابيلها اقسى المرارات وافدح الاهوال .

ولكن ، ما دامت « الآداب » ـ بكل ما لها من رصيد المحبة ، وما لها من قيمة ادبية متميزة في مستوى الابداع ومنزلة متفردة في المجال القومي ـ اقول : ما دامت «الآداب» هي صاحبة الدعوة فان الجهد يهون في واجهة الذات ونبش الذكريات وكشف الحساب ، على ما في هذا الكشف والمكاشفة من جرح جديد وتفتيق جراح قديمة، شخصية ووطنية وقومية ، ولعل شيئا من العزاء يكمن في تلك المكانة التاريخية المرموقة التي تمتعت بها « الآداب » فنا وفكرا وادبا في ازهى مرحلة عاشها جيلنا واقساها ، بين ثورة عبدالناصر وحمّامات الدم في لبنان ... دون ان تعني هذه العبارة اي خلط بين قوى الثورة واعدائها .

عرفت « الآداب » في منتصف الخمسينات ، بعد حوالي اربع سنوات من صدورها . يومها كنت في ختام المرحلة الثانوية .. وقد تكشف لي فيها نفس جديد، حار، مدهش . فبعد رحلة طويلة، باهظة ومثمرة ، مع المرض والبحث عن عزاء وسلوى في كتب التراث بين جدران مشافي بيروت ودمشق ، توقفت بولع واعجاب لدى علي محمود طه والشابي وابي ريشة وبعض المهجريين كأبي ماضي والاخوة معلوف .. ويوم التقيت « الآداب » الفيتها قفزة نوعية متقدمة في الزمن والادب ـ بنسيجه الفني واتجاهه الفكري ، ليس في ما يتعلق بحركة الشعر الحديث وحسب، وانما بشقيقته التوأم ـ القصة القصيرة كذلك .

ان طالبا محروما طالما من بيئة فلاحية فقيرة ـ شبه بدوية .. لا يملك ان يشتري اكثر من كتبه المدرسية ، ولا يتاح له ان يقضي العطلة الصيفية في حمص لان قريته المشلوحة على كتف البادية تحتاج صيفا الى ايدي الطلبة ليساعدوا اهلهم في جني المحاصيل ، رغم شح مواسمها واعتمادها على رحمة الغيوم . وكان النمل مثلا اعلى طالما رددته اخي الاكبر على مسامعنا اثناء ذلك العمل المضني، لنزداد صبرا وتماسكا ومثابرة . وقد دخلت تلك الايام وهمومها في نسيج قصائدي الاولى التي لم تأخذ طريقها الى النشر لتصوري ان تلك الهموم والاوجاع الفلاحية لا تعني أحدا غير اصحابها :

النمل يسعى حاملا مرارة العراك
طول شهور القيظ لا ينام
مستمسكا بصبره البطل
يلم من هنا .. ومن هناك
مؤونة الشتاء
واهلها .. كالنمل دائبون
ماتوا وعاشوا عمرهم على أمل
ان تقبل الرياح من غربيّها
موفورة العطاء .

وكانت « الآداب » حلما ، كوكبا يضيء من بعيد .. وليس لذلك الطالب وامثاله ان يطمع بالوصول اليه . فبينما كنا نلهث في الحقول او البيادر كان زملاؤنا من ابناء المدينة يتنعمون بثروة المركز الثقافي من كتب ومجلات . وتمتد العطلة خمسة شهور من كل سنة ، فكيف تمضي

دون قراءة ؟.. وليس في بيتنا غير ديوان ابي تمام وحماسته وديوان المتنبي والبحتري وبعض الصوفيين ،ولم يكن في قريتنا غير قصة الزير سالم وتغريبة بني هلال وبضع مخطوطات لقصائد بدوية ملحمية . وهذه كلها شبعنا منها حفظا وترديدا قبل مجيء المدارس الى تلك المنطقة البائسة . فكان لا بد من تعويض .. وكانت « الآداب » هي ذلك التعويض المرتجى : فسعرها لا يتعدى ليرة سورية وما تحتويه من شعر وقصة ونقد وبحوث لا يمكن ان يضمها كتاب بمفرده .

جرت العادة المتحدرة من ايام القبيلة ان يقدم الادباء الاساتذة مريديهم الناشئين الى المنتديات الادبية ووسائل النشر ، مشفوعين بآيات التبني والتزكية والمباركة . وكنت محروما من هذه النعمة ، حتى اني لم اجرؤ يوما على مفاتحة استاذنا الجليل الشاعر رضا صافي بتورطي في اقتراف آثام الشعر . ورحت اشق طريقي بتخبط تجريبي واجتهاد عفوي مثل اي نبات بري ..

واصحو يوما على حدث ابهى من الحلم واغلى ... فها هي « الآداب » تفتح لي صدرها الفني الدافيء وتتبناني وتكرمني ، دون وساطة او معرفة مسبقة ، حين نسرت اولى قصائدي في تشرين الثاني عام ١٩٥٩ .وهذه مأثرة كريمة غالية احتفظ لها بمكان خاص في الذاكرة وزاوية حميمة في القلب ، لا يمكن ان انساها او اتنكر لها ما حييت .

اذكر اني خرجت من الجامعة في اصيل ذلك اليوم، مثقلا بالكآبة واليأس .. فالحالة المادية لا تسمح بمتابعة الدراسة والعمل غير متيسر ، وليس امامي الا طريق العودة الى القرية والاستسلام لقدر الاجداد في العمل الزراعي الشاق والعيش الصعب . ورحت اتسكع في شوارع دمشق مودعا ..واتصفح واجهات المكتبات فاذا بالعدد الجديد من « الآداب » يناديني كصديق حميم يفرش العزاء ويجدد الامل ..اقتربت منه بلهفة وتصفحت الاسماء على الغلاف فهزني وجود اسمي بينها واعترتني نشوة فجائية غامرة ، اشبه بنشوة الولادة ،وساءلت نفسي : اصحيح ما أرى ؟!

ولعل « الآداب » لا تدري ، ولا صاحبها العزيز ،ان تلك المأثرة الغالية كانت نقطة تحول جذري في حياة ذلك الطالب التعيس . فمن تلك اللحظة قرر ان يتابع الدراسة الجامعية ، ولو في القرية . كان في صباه الباكر قد قاوم المرض اربع سنين وانتصر عليه ، فلماذا لا يقاوم ظروف القحط والجهالة والظلم الاجتماعي ؟.. وكانت « الآداب » طوال هذه السنين جامعته الصغيرة المتنقلة ومعلمته المثلى وانيسة وحدته ، في منطقة ما تزال حتى اليوم غارقة في ظلمات القرون .

ان « الآداب » مجلة الشباب المبدع بحق ، وقد استطاعت من خلال بابها النقدي « قرات العدد الماضي من الآداب » ان تقوّم نتاجهم وتصقل تجاربهم وتحفزهم على تجاوز انفسهم عاما بعد آخر . ولقد آثرت ان اطيل الحديث عن مرحلة البدايات تلك لاصل الى مسألة موضوعية هامة ، تتخطى حدود الآداب والفنون لتغطي الحياة العامة باسرها . فانا ازعم ان بدايات جيلنا في عدة اقطار عربية كانت متشابهة، وان اختلفت التفاصيل. وحين انتقل هذا الجيل بمجتمعه من ظل الاقطاع والعشائر والبرجوازية الذيلية (خليفة الاستعمار وحليفته) الى ظل البرجوازية الصغيرة .. فقد كان يحمل آمالا وطموحات كبرى ،لم يبق منها بعد الاحتكاك بالواقع العملي والاصطدام بامراضه وتحدياته .. اقول بمرارة :لم يبق منها غير الدم المتخثر والبثور وشريط جهنمي من الذكريات والافكار السوداء التي تفرزها كل حقبة من الخيبة والقهر والاحباط .

لقد عرفنا « الآداب » اول ما عرفناها... والمد الشعبي الديمقراطي يتسع ويمتد من قطر الى قطر وقوى الثورة العربية ، القومية التقدمية – ولا اقول الاشتراكية حتى لا اظلمها – في تصاعد حثيث .. وها نحن بعد كل هذه السنين وليس في الواقع العربي ما يوحي بالضوء والهواء والامان . ثمة اضاءة تاريخية مبشرة حملها الينا العمل الفدائي .. لكنها نحرت في مهادها قبل ان تتفتح على مداها وتكتمل .. ولعل ابرز ميزة تفردت بها «الآداب» هي منطلقها القومي وتوجهها التقدمي – الاشتراكي . ولئن طغى العامل الاول على غيره ، فالسبب يعود الى اننا كنا ، وما نزال ، نخوض معارك تحررنا الوطني ، برغم كل ما يقال وما يحاك .

كانت فلسطين قضية القضايا التي حملت «الآداب» هاجسها . وكذلك ثورة الجزائر وفاجعة بنزرت وبور سعيد .. وشتى الجراح التي مني بها الوطن العربي من اقصى مغربه الى اقاصي المشرق . وقومية« الآداب » لم تقتصر على طرح الافكار وانما تجاوزته الى الواقع فكانت اول واحب مجلة تنتشر في معظم اقطار الوطن وتحتضن مختلف الاقلام من المغرب الى الكويت . فلولا الآداب لما قرأنا محيي الدين فارس والبياتي والسياب وعبدالصبور وحجازي وسليمان فياض وزكريا تامر ومالك حداد ، وسعدي يوسف وصباح محي الدين وقاسم حداد ... وغيرهم عشرات .

واذكر ايام الانفصال ، ونحن في جامعة دمشق ، كنا نتلقف اعداد « الآداب » ونتداولها خفية كأنها منشور سري .

ولكن ، كيف انحسرت تلك الاندفاعة الشعبية المتدفقة من قطر الى آخر .. وكيف تحولت الى فقاعات قزحية طافية على السطح الرسمي ، فذلك حديث موجع ويطول . ولكن لا بد من الاشارة الى اصل الداء حتى لا نفقد الامل في جماهير امتنا وما قدمته من تضحيات لا يمكن ان يحيط به اي بيان . واصل الداء – كما اراه – يكمن

في ان البرجوازية الصغيرة ، بفلسفتها الاقليمية المموهة وانبطاحها المفيظ تحت اقدام الامبريالية .. اخطر بكثير من كل ما شهده الوطن العربي في هذا القرن من ويلات وكوارث ، وبخاصة حين تستعيض عن رصيدها الشعبي المفتقد بالانضواء تحت خيمة ام القرى واستجداء بركاتها المنقوعة بالزيت والقطران .

ويبدو لي بعد هذه السنين ان « الآداب » ارتكبت خطأ فادحا في التزامها القومي وقوة اندفاعها وسعة انتشارها . ويتجلى هذا « الخطأ » في انها نبهت القبائل والحكومات الاقليمية الى خطورة الادب ، فاستحدثت هذه الحكومات في عواصمها مجلات ادبية اقليمية على صورتها ومثالها ، اي انها لا تحمل من سمات العروبة غير اللغة .. وبعضهم لا يتحرج في اقلمة اللغة ذاتها. بذلك انكفأ الادب انكفاء خطيرا وانقطع ذلك التواصل الثقافي القومي .

والعتب الودي الذي لا بد في الختام من توجيهه الى « الآداب » هو عزوفها ، او تقصيرها ، عن تناول الفكر الماركسي . ان الثورات القومية الاشتراكية من كوبا الى كوريا قد استندت اساسا الى هذا الفكر . وحين ادعو مجلة رائدة كـ « الآداب » الى تناوله ، فانا لا اعني تلقينه كتعاليم كهنوتية مقدسة حولت بعض معتنقيها الى مومياء او في احسن الاحوال « وكلاء تشريفات » .. وانما اعني ان نستفيد من ماديته الجدلية وقوانينها كمنهج علمي في دراسة واقعنا وتحليله وفهمه حتى نصل يوما الى تغييره .

شيء آخر ، ارجو ان يدخل تراثنا الادبي والفكري ـ الجوانب المضيئة منه بالتحديد ـ في دائرة اهتمام « الآداب » بحيث تتناول موضوعا في كل عدد .. لا كما يفعل بعض المحنطين في تحقيقاتهم السكونية الجامدة ، ولكن ان يتم ذلك في ضوء المنهج الجدلي . فمن الامور المؤسفة ان الجيل الطالع ـ جيل التلفزيون ـ لا يعرف من تراث امته غير ذلك النزر اليسير الوارد في كتب المدرسة . ويكفي هنا ان نشير الى ان احد الجهلة الكبار يصف المتنبي بانه « برجوازي حقير » وينسى نفسه لانشغاله بمصادرة الشعر الجاد وحصار الشعراء الشباب . وقديما قيل : من قلة الخيول ..

دمشق